مجلة جامعة الملك سعود، م ٩، الآداب (١)، ص ص ٢٣١-٢٥٧ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

رؤية أنثروبولوجية لبعض المشكلات في عالمنا المعاصر

فتحية محمد أحمد إبراهيم
أستاذ مساعد، قسم الدراسات الاجتماعية،
كلية الآداب، جامعة الملك سعود،
الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ١٦/ ٧/ ١٤١٥هـ، وقبل للنشر بتاريخ ٧/ ١٠/ ١٤١٦هـ)

ملخص البحث. كشفت الأزمات والمشكلات المتلاحقة في عالمنا المعاصر عن ضرورة التضافر بين جهود العلماء المتخصصين في العلوم الطبيعية والتكنولوجية، وبين جهود المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية. وتتميز مشاركة الأنثروبولوجيا في هذا المجال بالرؤية الشمولية التي لاتفصل بين محاولات الإنسان في المجتمعات المعقدة لإيجاد حلول لمشكلاته، وبين خبرات الإنسان في المجتمعات البسيطة التي ساعدت على استمرارها عبر آلاف السنين. كما تتميز بالقدرة على فهم الأبعاد الإنسانية للمشكلات والتي قد لا تصل إليها التحليلات الكمية. ففي مواجهة مشكلات التنمية أكد الباحث الأنثروبولوجي نجاح دوره كوسيط اجتماعي بين القائمين على تخطيط المشروعات الإنمائية وتنفيذها وبين الأهالي المستفيدين منها، إلى الحد الذي دفع البنك الدولي إلى الاعتراف بأهمية هذا الدور في إنجاح المشروعات التي يشرف عليها. وفيما يتصل بمشكلات البيئة والمحافظة على الموارد الطبيعية، أبرزت الأنثروبولوجيا الفروق الواضحة بين استراتيجيات المجتمعات المعقدة في التعامل مع البيئة وبين تلك الخاصة بالمجتمعات البسيطة، والتي يتم فيها استغلال المحيط البيئي دون تدمير للدورة الطبيعية لمكوناته، وقدم بعض الباحثين مشروعهم في هذا الصدد إلى أحد المؤتمرات الدولية المهتمة بشؤون المحافظة على البيئة.

وعرضت الدراسة فيما يتصل بمشكلة الفقر المقابلة التي ظهرت في الأنثروبولوجيا بين المدخل الثقافي وبين المدخل البنائي، وقد توصل المدخل الأول إلى تحديد مجموعة من السمات المميزة

للمجتمعات الفقيرة، والتي يتشربها الصغار عبر عملية التنشئة الاجتماعية، وتنتقل من جيل إلى آخر لتعبر عما أسماه "ثقافة الفقر،" ولكنه قوبل بنقد شديد من جانب أنصار المدخل البنائي الذي يربط بين الضغوط الواقعة على المجتمعات المحلية الفقيرة وبين طبيعة العلاقات القائمة بينها وبين المجتمعات الكبيرة التي توجد في إطارها.

يتصاعد دور العلوم الاجتماعية في مواجهة كثير من المشكلات المعاصرة، وخاصة بعد وضوح الأبعاد الاجتماعية لهذه المشكلات، كما هو الحال في قضايا التنمية والمحافظة على البيئة مثلا، وأيضا بعد أن تأكد ضعف الدعاوى القائلة بأن الأخطار الناجمة عن تطبيقات العلوم الطبيعية يمكن أن تواجه كذلك من خلال هذه العلوم وحدها. ومع أن مشاركة الأنثروبولوجيا في هذا المجال تثير عددا من التساؤلات تتعلق بالموضوعات التقليدية لدراستها وبالأسلوب المميز لها في البحث، فإن الدراسة الحالية تلقي الضوء على قدرتها كعلم للإنسان على هذه المشاركة، وتوضّح كيف ساعدت الجوانب التي أثارت تلك التساؤلات، على دعم دورها الجديد إلى الحد الذي دفع البنك الدولي مثلا إلى الاستعانة بباحثين أنثروبولوجيين في الأنشطة التي من خلالها بعض المشكلات المعاصرة.

أولا: التغير وتفاقم المشكلات

يتميز العالم المعاصر بتسارع التغيرات في مختلف جوانبه، ويكفي للدلالة على ذلك ملاحظة الفروق الزمنية التي تفصل بين حقبة وأخرى من حياة الإنسان على كوكبنا الأرضي، ففي حين استغرقت حياة الصيد والجمع والالتقاط ما يقرب من مليون عام، فإن عصر التصنيع الذي نعيشه الآن لايتجاوز عمره المائتي عام. ومع هذا، أفرز هذا العصر إلى جانب إنجازاته الحضارية أسلحة الدمار الشامل التي تهدد هذه الحضارة ذاتها بالفناء. ويكفي أن نشيُر هنا إلى أن مجلة *Science* كانت قد نشرت عام ١٩٦٩م تصنيفا للمشكلات والأزمات، من حيث درجة تهديدها لحياة البشر، فوضعت الأسلحة النووية على رأس القائمة، ثم تلتها بعد ذلك المجاعات واختلال التوازن البيئي، وفشل برامج التنمية، والحروب المحلية، واتساع الهوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة وزيادة التلوث، والحروب العرقية، وانتشار القيادات الدكتاتورية، وحاجة ملايين السكان إلى

برامج الإسكان والتعليم والرعاية الصحية. وبعد أكثر من ربع قرن على هذه الدراسة، نلاحظ أن بعض التغيرات طرأت على قائمة المشكلات والأزمات السابقة، والتي كان الصراع النووي بين القوتين العظميين يتصدرها، ولكنها تظل في مجملها معبرة عما هو قائم حاليا وإن اختلفت أسماء المواقع التي تتعرض للكوارث والأزمات أكثر من غيرها، كما تعبر من ناحية أخرى عن أهمية تضافر الجهود في عملية المواجهة، لأن مشكلة تناقص الغذاء في العالم المعاصر، كما تقول الدراسة، ليست أقل وزنا أو أهمية من الحرب العالمية الثانية، التي كانت نموذجا لاستنفار الجهود كافة، سواء من ناحية المسؤولين أو من ناحية العلماء بتخصصاتهم المختلفة. وعلى الرغم من الأهمية التي تضفيها الدراسة على جهود العلماء المتخصصين في العلوم الطبيعية في هذا المجال، إلا أنها تضفي أهمية مماثلة على جهود العلماء الاجتماعيين، لأن المواجهة في أساسها تقوم على التنمية وإحداث التغير الاجتماعي السلمي، ولهذا تحذر من خطأ الاعتقاد بالفكرة الشائعة عن "الهوة الاجتماعية" بين الإنجازات التكنولوجية وبين الإنجازات في محيط العلوم الاجتماعية. فهذه الأخيرة حققت بدورها نجاحات مهمة مثل عمليات قياس الرأي العام، ومستويات المعيشة، والأساليب الإحصائية الجديدة، والنظريات الحديثة في مجال الاقتصاد وإدارة الأعمال والسياسة.(١)

ويهمنا الآن أن نشير إلى أن تقدير الجهود المتوقعة من جانب العلماء الاجتماعيين يعبر عن تيار فكري نشيط في العقود الثلاثة الأخيرة تحت وطأة المشكلات والأزمات العالمية الراهنة. ومن مظاهره الدعوة إلى مراجعة أو إعادة تقويم كثير من المسلّمات والأحكام العامة والأساليب المنهجية التي دأب العلماء الغربيون على اعتبارها أسسا لبحوثهم، ونظرتهم إلى العالم المحيط بهم، وفهمهم لما يجري فيه من أحداث.(٢) ومن

(١) John Platt, "What Must We Do?" *Science* 166, No. 2028 (1969), 1115-1121.

(٢) Vince Tylor, "Subjectivity and Science," *The Ecologist*, 10, No.5 (1980), 230.

في هذه الدراسة يوجه عالم الاقتصاد فينس تايلور خطابا إلى باحث شاب كان قد أظهر اعتقاده بأن التحليلات العلمية الكمية هي وحدها القادرة على دراسة المشكلات وحلها يقول له فيه: "كم أود تغيير الطريقة التي تفكر بها، لأنها لم تعد صالحة للعمل لا على المستوى الشخصي ولا على المستوى الاجتماعي، وإذا واصلت محاولتك إخضاع العالم لتلك الطرق التقليدية في التفكير، فسوف تشعر بالاضطراب وعدم القدرة على الإسهام في تقديم العون المطلوب لهذا العالم.

مظاهره كذلك التعامل مع المشكلات العالمية على أساس الرؤية الشمولية القائمة على البعدين المكاني والزماني. فمن الناحية المكانية، نجد الباحثين يدرسون التأثيرات السيئة لأية مشكلة ليس فقط على سكان الأقطار الغربية، بل أيضا على سكان الأقطار الأخرى باعتبار العالم كله يمثل مجتمعات بشرية متداخلة مهما كانت درجة التأثير والتأثر. ومن الناحية الزمانية، عدم فصل الأزمات الحالية التي تعاني منها البشرية، كالحروب والفقر والتلوث وتدمير البيئة عن طبيعة الحقب السابقة للتاريخ الإنساني، والتي تمثل فترة حضانة طويلة لها، لكي يتعرف الباحثون على كيفية نشأة الأعراض المرضية التي تجمعت على مر السنين لتشكل تلك الحالات المرضية الخطيرة.

ومن مظاهر هذا التيار كذلك لجوء كثير من الباحثين عند دراستهم لموضوعات أو مشكلات تتصل بتخصصاتهم إلى استكشاف الأساليب التي يواجهها بها الإنسان "البدائي" في مجتمعاته البسيطة، على أساس أن فاعلية مثل هذه الأساليب هي التي كفلت لهذه المجتمعات البقاء والتوازن فترات طويلة من الزمن. ففي دراسة عن العلاقة بين أساليب التغذي وبين الأمراض التي زاد انتشارها حديثا أوضح الطبيب روبسون(٣) الحاجة إلى مراجعة عدد من الأفكار الشائعة والمتصلة بالعلاقة بين الصحة والتغذية في ضوء ماكشفت عنه البيانات في عدد من المجتمعات البسيطة. فغذاء الإسكيمو في القطب الشمالي الذي يحتوي على نسب عالية من البروتين والدهون يختلف تماما عن غذاء سكان غينيا الجديدة في المنطقة الإستوائية، الذي يقوم على الأطعمة النشوية ويقل فيه البروتين عن نسبة الحد الأدنى المعروفة عالميا للغذاء الصحي. ومع هذا فأطفال الشعبين وكبارهم يتمتعون بالبنية السليمة ولا يشكون من الأمراض التي تزعج الإنسان المتحضر. ولو أخذنا بالمقاييس الغذائية المتداولة لقلنا إن غذاء الإسكيمو من شأنه زيادة أمراض القلب والأوعية الدموية لديهم، وإن غذاء السكان في غينيا الجديدة لابد وأن تنشأ عنه الأمراض الناجمة عن نقص البروتين. ومع هذا، فإن مجتمعاتنا الحالية هي

(٣) John Robson, ed., *Food, Ecology and Culture* (New York: Gordon & Breach, 1980), pp.vii-ix.

التي يعاني سكانها من الأزمات القلبية وأمراض السكر والسمنة وغيرها. ويصل روبسون في هذا الصدد إلى وضع فرض مؤداه أن "التغير الكبير الذي طرأ على أساليب التغذية في العالم الغربي أحدث تغيرات في الميكانزمات الضابطة لإفراز الهرمونات وهضم الطعام في الجسم، بما يتلاءم مع تلك الأساليب الجديدة." ويذكر أن التحقق من هذا الفرض سوف يساعد على معرفة الصلة بين أساليب التغذي وبين ارتفاع نسبة الإصابة بالسرطان.(٤)

ويعبر هذا المثال - إلى جانب الناحية العلمية الخالصة - عن تغير واضح في نظرة العلماء إلى مصطلح "الإنسان البدائي." وكان للأنثروبولوجيا دور مهم في هذا التغير، لأنها خلصته من الأحكام التقويمية القديمة وأظهرته في صورة أكثر واقعية وموضوعية. فالمجتمعات البسيطة ليست "بدائية" بمعني أنها تمثل بداية النمو الحضاري للمجتمعات الحديثة، وإنما هي بسيطة، لأنها ذات نطاق محدود وكثافة سكانية محدودة. وتتميز ثقافتها بالقدرة على تحقيق التواؤم والتوازن مع الأنماط البيئية المحيطة بها، والتي ترتبط بها في أساليب حياتها ارتباطا مباشرا. وإلى جانب هذا الدور، حققت الأنثروبولوجيا إسهاما مباشرا إلى جانب العلوم الاجتماعية والطبيعية الأخرى في مواجهة كثير من المشكلات التي تعترض الإنسان المعاصر، متمشية في ذلك مع أحد بنود ميثاق العمل الأنثروبولوجي الصادر في عام ١٩٧٣م الذي يوجب على الباحثين في علم الإنسان ضرورة المشاركة بصورة فردية أو جماعية في تحقيق فهم أقرب للواقع يصلح أساسا سليما لتوجيه الرأي العام ورسم السياسات العامة.(٥)

وخلال العقدين الأخيرين تزايدت الدعوة إلى إبراز دور الباحثين الأنثروبولوجيين من أبناء دول العالم الثالث في مناقشة ومواجهة المشكلات والأزمات الراهنة، وخاصة أنها تؤثر بالدرجة الأولى على بلادهم، وقاد الأنثروبولوجي حسين فهيم هذه الدعوة، وتولى صياغة مصطلح ملائم لها هو "أنثروبولوجيا أبناء البلد الأصليين" indigenous

---

(٤) Robson, p.viii.

(٥) Michael Rynkiewich and James Spradley, *Ethics and Anthropology* (New York: J. Wiley, 1976), p.184.

anthropology ،[٦] وعمل على عقد ندوة بالنمسا عام ١٩٧٨م، كانت بمثابة تكريس لهذا الاتجاه، واعتراف بقدرة مؤيديه على توجيه بحوثهم وجهودهم بما يحقق الفائدة لشعوبهم ومجتمعاتهم.[٧] وعلى الرغم من المناقشات التي دارت حول صياغة المصطلح، وحول تأثير الاتجاه على المسار الرئيس للأنثروبولوجيا، إلا أن مؤيديه أكدوا من خلال بحوثهم ودراساتهم الحقلية أنهم ينطلقون من الأسس النظرية والمنهجية لعلمهم ويزيدونها ثراء، وأنهم أكثر قدرة من غيرهم فيما يتصل بالبحوث التطبيقية إذا كانت مرتبطة بمجتمعاتهم، "وهكذا أتيحت للأنثروبولوجيا الفرصة والإمكانية لأن تصبح علما إنسانيا يسعى لتحسين أوضاع البشر أينما وجدوا، بدلا من اهتمامها بالأنساق القرابية وغرائب البشر في الأنحاء القاصية من الأرض."[٨] وقد أوضحت الأنثروبولوجية ثريا التركي كيف توصلت إلى نموذج تصوري يتصل بوضع المرأة في المجتمعات العربية والإسلامية يخالف النموذج الغربي الشائع عن هذا الوضع، وبالتالي يكون أقدر على تفسير الواقع بصورة أكثر موضوعية، وأكدت أن هذا لم يتم إلا لكونها باحثة منتمية إلى أحد هذه المجتمعات وأقدر من غيرها على فهم تنظيمه الاجتماعي.[٩]

ثانيا: رؤية أنثروبولوجية لبعض المشكلات

١ - مشكلات متصلة بعمليات التنمية

لسنا بحاجة إلى تأكيد محورية قضية التنمية بين المشكلات المعاصرة، وخاصة في دول العالم الثالث، ومما يساعد على توضيح دور الأنثروبولوجيا في هذا الصدد الإشارة إلى استعانة البنك الدولي بالباحثين الأنثروبولوجيين في عدد من مشروعات التنمية التي يمولها ويشرف عليها. فبعد أن كان اهتمامه موجها في المراحل الأولى من

(٦) حسين فهيم، *قصة الأنثروبولوجيا* (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٨٦م)، ص٢٥٢.

(٧) Albert Bacdayan, "Book Review: Indigenous Anthropology," *American Anthropologist*, 86, No.3 (1984), 709.

(٨) Bacdayan, p. 711.

(٩) Soraya Altorki, "The Anthropologist in the Field," in H. Fahim, ed., *Indigenous Anthropology* (Durham: Caroline Academic Press, 1982), p.167.

عمله نحو تنفيذ المشروعات الضخمة للبنية التحتية، كالسدود ومحطات الطاقة، تحول اهتمامه في مرحلة تالية إلى مشروعات ذات بعد اجتماعي واضح، كتنظيم الأسرة وتغيير الأنماط الاقتصادية للمعيشة والمشروعات الصحية. وفي هذه المرحلة ظهرت الحاجة إلى الاستعانة بباحثين يكونون أكثر دراية بهذا البعد، وضم البنك بالفعل أحد الأنثروبولوجيين إلى الهيئة المكلفة بتنفيذ أحد مشروعاته الإنمائية في كينيا عام ١٩٦٧م. ومع نجاح هذا الإجراء توالت عمليات الاستعانة بجهود الأنثروبولوجيين في المشروعات اللاحقة إلى حد أن البنك دعا أحد كبار علماء الأنثروبولوجيا في أمريكا G. Cochrane للإقامة فيه لمدة ستة أشهر بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣م من أجل إجراء تخطيط دائم لهذه العملية. وبالفعل ارتفع عدد الباحثين الاجتماعيين والأنثروبولوجيين المشاركين في المشروعات الإنمائية للبنك في السنوات التالية مباشرة من أربعة عشر باحثا عام ١٩٧٢م إلى أربعة وستين باحثا عام ١٩٧٨م. وكان الباحثون من أبناء الدول النامية يمثلون نسبة ٢١٪ منهم، وهي أعلى من نسبتهم في التخصصات الأخرى التي تشتمل عليها أنشطة البنك.(١٠)

وإذا كان الباحث الأنثروبولوجي يتفق مع غيره من الباحثين العاملين في مجالات التنمية على تأكيد أهمية الجوانب الاجتماعية لأي مشروع أو برنامج إنمائي، فإنه يتميز بأسلوبه القائم على معايشة الأطراف المنفذة له والمستفيدة منه. وهذه المعايشة تمكنه من الاقتراب أكثر من غيره من رؤية الأهالي لما يجرى تنفيذه في بيئتهم، ومن الربط بين خطة المشروع وأهدافه، وبين أسلوبهم في الحياة ونسقهم القيمي واتجاهاتهم الفكرية، وتمكنه كذلك من استبصار إمكانات النجاح أو الفشل لما يجري تنفيذه، وتنبيه المسؤولين عن المشروع من ناحية بالصعوبات والمعوقات قبل استفحالها، وإقناع الأهالي من ناحية أخرى بأهداف المشروع وخطواته التنفيذية، وخاصة إذا ما تعارضت مع ميولهم واتجاهاتهم في مراحله الأولى. ولا يعني ذلك أن الباحث الأنثروبولوجي أكثر تحيزا

(١٠) Michael Cernea, "Indigenous Anthropologists and Development Oriented Research," in H. Fahim, p.128.

لجانب الأهالي وتعاطفا مع رغبتهم في المحافظة على أساليبهم التقليدية، بل يعني فقط دعوتهم إلى أن تكون التنمية من القاعدة لا أن تكون عملية فوقية يخطط لها وينفذها مسؤولون حكوميون دون وضع اعتبار للأهالي الذين يجرى التنفيذ في بيئتهم ويؤثر على طبيعة حياتهم.

وتتيح هذه المعايشة للباحث كذلك تتبع مراحل تنفيذ المشروع أو البرنامج ورصد تأثيراته في جوانبها المتعددة وخاصة تغير أنماط العلاقات بين الأهالي وبين السلطة الرسمية والهيئة القائمة بالتنفيذ، وأيضا بينهم وبين بيئتهم قبل التنفيذ وبعده. بالإضافة إلى تغيرها في محيط بنائهم الاجتماعي وما يتضمنه من أنساق. ولهذا يكون في استطاعتهم إجراء عملية تقويم للمشروع الإنمائي، سواء خلال مراحل تنفيذه أو بعد إنجازه. وفي هذه الحالة سوف يختلف تقريره عن تقارير المهندسين أو الخبراء الاقتصاديين العاملين بالمشروع، لأنه سيكون أقل منهم خبرة بالنواحي الفنية والكمية، ولكنه أكثر منه مقدرة على تقديم رؤية شمولية متعدده الأبعاد.

ومن الدراسات الأنثروبولوجية التي تكشف عن مثل هذه الرؤية، دراسة حسين فهيم عن السد العالي في مصر، والتي جعل عنوانها تأكيدا لهذا المعنى *Dams, People and Environment*، موضحا أن من بين أهدافها إظهار الحاجة إلى مؤشرات اجتماعية ذات طابع كيفي تعبر عن الجوانب الاجتماعية والنفسية والسياسية لمثل هذه المشروعات المائية، لأن الأساليب الكمية التقليدية، والقائمة على حساب التكاليف والعوائد على أساس اقتصادي ومادي بحت، لا تعطى اهتماما كافيا لهذه الجوانب، مما أدى إلى إضعاف دورها في عمليات اتخاذ القرارات عند التخطيط للمشروعات والبرامج الإنمائية وتنفيذها.(١١) والمثال الواضح لذلك ما نتج عن بحيرة السد من تحركات بشرية تتمثل في تهجير النوبيين إلى مناطق جديدة، وابتعاد البدو عن مناطق رعيهم، وقدوم صائدي الأسماك للاستيطان على ضفاف البحيرة، وعودة بعض النوبيين إلى مناطقهم

(١١) Hussein Fahim, *Dams, People and Development* (New York: Pergamon Press, 1981), p.4.

الأصلية، فهذه التحركات تعتبر جزءا من التشكيل الجديد للنسق الإيكولوجي في المنطقة. وينبغي لذلك أن يكون لهذا الجانب الإنساني صوت مسموع عند التعرض للآثار الإيجابية والسلبية الناجمة عن مشروع إنمائي ضخم كبناء السد.(١٢) فمفهوم التنمية في دول العالم الثالث ينبغي أن تكون له خصائصه التي تميزه عن مثيله في العالم الغربي، بل إن لكل دولة الحق في أن يكون لها إطارها الإنمائي الذي يتمشى مع خصائصها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والروحية، لأن المهم في هذا المجال هو نجاح الاستراتيجية الإنمائية في تحقيق التوازن الدقيق بين العناصر الثقافية والبيئية، بين الإمكانات المتاحة والقيود الضاغطة، وكذلك التعمق في فهم أنماط العلاقات الحالية والمستقبلية بين هذه العناصر.(١٣)

ولاشك أن عملية تهجير أهالي النوبة تمثل أهم الجوانب الإنسانية المتصلة ببناء السد، وبقدر ما كان لهذا البناء أهدافه الإنمائية العامة التي تشمل المصريين جميعا، فإن عملية التهجير استهدفت تحقيق التنمية للمجتمع النوبي بصفة خاصة في موطنه الجديد. ويشير حسين فهيم إلى أن دراسته لها امتدت إلى ما يقرب من سبعة عشر عاما على فترات، لأنها ليست من نوع الدراسات الأنثروبولوجية التي تتم في زيارة واحدة، بل تحتاج لوقت كاف يتمكن خلاله الباحث من الإجابة عن التساؤل المطروح عن "الكيفية" التي تم بها التفاعل بين الأهالي والثقافة والبيئة، والتأثير المتبادل بين هذه العناصر الثلاثة خلال عملية التهجير ومواجهة التغيرات الاقتصادية والاجتماعية.(١٤) ولهذا ساعدت المعايشة الطويلة لمجتمع البحث على إظهار أن ما حدث بين النوبيين عند توطينهم في مكانهم الجديد أكبر من أن تستوعبه كلمة "تكيف،" لأن استراتيجياتهم في التعامل مع الظروف الجديدة لم تكن وسيلة فقط للتغلب على ما يغمرهم من ضيق نفسي بعد ترك موطنهم الأصلي، بل تعبيرا عن لهفتهم إلى استعادة المعاني الثقافية والبنائية التي

---

(١٢) Fahim, p.58.

(١٣) Ibid., p.118.

(١٤) Hussein Fahim, *Egyptian Nubians: Resettlement and Years of Coping* (Salt Lake City: University of Utah Press, 1983), p.x.

تعرضت للضياع مع هذا التغير البيئي السريع.[١٥] ومع هذا لفتت الدراسة أنظار المخططين للبرامج الإنمائية في مثل هذه الحالات إلى أن حالة الحنين للوطن الأصلي تولد ما يمكن تسميته "مرض إعادة التوطين،" الذي يعوق القدرة على التكيف مالم تنجح هذه البرامج في دعم النواحي الإيجابية التي تتغلب علي أعراض هذا المرض.[١٦]

وإذا نظر البعض إلى عملية التهجير على أنها الثمن الاجتماعي الذي تحمله النوبيون من أجل بناء السد، فإن الدراسة تشير إلى أنه، مع جميع الجوانب السلبية لها، ظهرت أيضا جوانب إيجابية من أهمها كسر طرق العزلة التي كانوا يعيشونها واكتسابهم دورا جديدا في مجرى الحياة العامة على المستويين المحلي والقومي، بالإضافة إلى زيادة التماسك الاجتماعي والترابط الأسري بينهم. ولهذا توصي الدراسة بأن من صالح واضعي السياسة الإنمائية في الوطن الجديد (كوم أمبو) مواجهة الشعور لدى الأهالي بأن عملية تعويضهم ينبغي أن تستمر مع استمرار معاناتهم، وتوجيههم بدلا من ذلك إلى الاقتناع بدور المشارك في التغلب على الظروف الصعبة، وتكوين مجتمعات محلية قادرة على التنمية الذاتية.[١٧] وإلى جانب هذا المبدأ العام، تقدم الدراسة توصيات أخرى تتصل بالمجتمع الحالي للأهالي المهجرين، وأيضا بالخطط الخاصة بعمليات التهجير بوجه عام، سواء على المستوى القومي أو العالمي، وبمعنى آخر تمثل إضافة إلى الدراسات الهادفة إلي تنظير هذه العملية في ارتباطها بعملية التنمية.

وإلى جانب الدراسات الحقلية التي تظهر المشاركة الفعلية من جانب الباحثين الأنثروبولوجيين في إنجاح عمليات التنمية كأحد مجالات الأنثروبولوجيا التطبيقية، لابد أن نشير هنا إلى أن هذه المشاركة كانت ومازالت تتم بصورة غير مباشرة من جانب سائر الباحثين الذين غطوا بدراساتهم الحقلية العديد من الأقطار النامية في سائر أنحاء الأرض، ورسموا ما يشبه الخرائط المعرفية التي ترشد المخططين لمشروعات وبرامج التنمية إلى الكثير مما يودون معرفته. ومن ثم يصبح الباحث الذي تخصص في دراسة

---

(١٥) Fahim, *Egyptian Nubians*, p.50.

(١٦) Ibid., p.111.

(١٧) Ibid., p.162.

قبائل الرعاة في دول شرق أفريقيا مثلا، ونشر بحوثه عنها بمثابة الغائب الحاضر في أي مشروع للتنمية يجرى تنفيذه في تلك المناطق. وقد أشار أحد علماء الاقتصاد إلى هذه الحقيقة في بحث له بعنوان "ما الذي يمكننا تعلمه من الأنثروبولوجيا؟" فذكر أن هذا العلم أفاد بحوث التنمية الاقتصادية في ناحيتين رئيستين: أولاهما اهتمامه بالرؤية الشمولية لمعنى الثقافة والتساند القائم بين جوانبها وعناصرها المختلفة، والأخرى تتصل بالكم الهائل من الدراسات الأنثوجرافية عن المجتمعات بنوعياتها المتعددة في شتي أنحاء الأرض، مما يتيح للمتخصصين في الاقتصاد مثلا إعادة تأويل البيانات الوصفية في ضوء نظرياتهم ونماذجهم التصورية.(١٨)

٢ - مشكلات متصلة بالبيئة والموارد الطبيعية

تعنى "أزمة البيئة" بوجه عام ما يحدث لها من تدهور كيفي وكمي مصحوب بانخفاض مستمر في قدرتها علي استيعاب ما يقطنها من كائنات حية، وذلك كنتيجة للتدخل البشري في الحركة المنتظمة لعمليات الطبيعة. فطرفا العلاقة هنا - وهما الإنسان والبيئة - يتفاعلان منذ فجر التاريخ ولكن بصورة مختلفة. وظلت صيغة التواؤم والتكيف تحكم هذا التفاعل حقبا طويلة امتدت لآلاف السنين، حتى حلت محلها صيغة السيادة والتحكم منذ مائتي عام وأكثر. وبقدر نجاح الصيغة الأولى في المحافظة على استمرار الجماعات الإنسانية مع النمو الحضاري البطيء، نجحت الصيغة الثانية في تحقيق قفزات حضارية مذهلة، ولكنها باهظة الثمن في الوقت نفسه. فقد بدأ الحديث عن اختلال التوازن البيئي، واستنفاد الموارد الطبيعية، والتلوث، وثقب الأوزون، وموت البحيرات والأنهار والغابات، والأمطار الحمضية، والاحتباس الحراري، وغير ذلك من المظاهر المهددة لبقاء الإنسان وغيره من الكائنات الحية على سطح الأرض.(١٩)

---

(١٨) Vernon Ruttan, "Cultural Endowments and Economic Development: What Can We Learn from Anthropology?," *Journal of Economic Development and Cultural Change*, 36, No.3 (1988), 52-56.

(١٩) الفرد فركلو، *مشاكل البيئة والموارد الطبيعية العالمية*، ترجمة دار البيادر (القاهرة: دار البيادر، ١٩٩١م)، ص٩.

وقد نشطت بالطبع الدراسات البيئية التي يركز بعضها على أسباب الأزمة بينما يركز البعض الآخر على آثارها وإمكانات مواجهتها، والتي يبدو طابع التشاؤم في بعضها، بينما يغلب التفاؤل علي البعض الآخر منها. وما يهمنا هنا زن هذه المناقشات والدراسات أبرزت تساؤلات مهمة عن العوامل التي ساعدت الإنسان في الماضي على التواؤم مع البيئة رغم اعتماده عليها في مختلف أوجه حياته الاجتماعية والاقتصادية، وعن أنماط الاقتصاد التي كفلت لكثير من المجتمعات البسيطة المحافظة على بقائها حتى اليوم في ظروف بيئية صعبة، وعن الدروس المستفادة من كل ذلك والتي يمكن أن تعين العلماء الساعين إلى مواجهة المشكلات القائمة والتخطيط لمجتمعات المستقبل. في هذا المجال قدمت الفروع المختلفة للأنثروبولوجيا - وخاصة الحديثة نسبيا منها كالأنثروبولوجيا الإيكولوجية والاقتصادية والبيولوجية - عددا كبيرا من البحوث الحقلية والدراسات التحليلية التي خرجت بنتائج مهمة اختلفت مع بعض الآراء الشائعة عن حياة الإنسان في المجتمعات البسيطة، كالاعتقاد بأنه في بحث دائم عن الطعام وبصورة لا تترك له مجالا لممارسة أنشطة اجتماعية أخرى. وساعدت أيضا على تصحيح بعض المسلّمات التي دأب العلماء على الأخذ بها كمفهوم "الإنسان الاقتصادي" مثلا، وأوضحت أن النسق الإيكولوجي في هذه المجتمعات البسيطة يتكامل مع باقي الأنساق الأخرى المكونة للثقافة في كل منها. فلا تكون الثقافة من ثم معزولة عن بيئتها، ولا هي خاضعة لحتمية بيئية تتحكم فيها وتشكل معالمها، بل توجد صيغة أو نظرية عامة تكمن وراء سائر الأنشطة التي يمارسها أفراد المجتمع، وتوجه علاقاتهم فيما بينهم ومع الآخرين، وتشكل كيفية تعاملهم مع البيئة التي يقطنونها ورؤيتهم للعالم المحيط بهم. وجدير بالذكر أن الإشارة هنا إلى مجتمعات بسيطة تعني تلك التي كانت تسمى تجاوزا "مجتمعات بدائية،" وهي المقصودة عند إجراد المقارنات بين الآليات التي تنظم وجودها واستمرارها وبين آليات المجتمعات المتقدمة صناعيا. فمعنى "استغلال البيئة" مثلا يختلف في الحالتين، لأنه لا يرتبط في المجتمع البسيط بالنسق الاقتصادي بصفة رئيسة كما هو الحال في المجتمع الصناعي، بل يخضع كذلك للنسق الإيديولوجي الذي يجبر الإنسان في هذا المجتمع على أن يكون استغلاله

للموارد الطبيعية في بيئته قائما على درجة من الثبات والتوقع للحدود التي يقف عندها هذا الاستغلال بما يكفل إشباع الحاجات المطلوبة. وهذا يختلف عن معنى الاستغلال في المجتمع الصناعي الذي يعني ضرورة الفوز في معركة التحدي مع البيئة، وإخضاعها لدرجات متصاعدة من الرغبة في تراكم الثروة، والتمتع بكل ماتتيحه الحياة من إمكانات.

ومن الطبيعي أن يرتبط هذا التصاعد باستهلاك متزايد للموارد الطبيعية والطاقة، ولكن الدراسات أوضحت أن لهذا الاستهلاك المتزايد تكلفته القاسية في نواح متعددة وخاصة التلوث. ومع هذا، فطبيعة الاقتصاد الحديث تحفزه نحو تصعيد دورة الإنتاج والاستهلاك باستمرار. وبصرف النظر عن الآثار الجانبية السلبية لها. ولا تمثل مشكلة احتمال نضوب الموارد الطبيعية ضابطا كافيا لديه كما هو الحال في المجتمعات البسيطة والتقليدية التي تعتمد على الموارد المحلية المتاحة اعتمادا كاملا. فاقتصاديات السوق تتيح للمجتمعات الصناعية إشباع حاجاتها المتزايدة من خارج حدودها إلى جانب مواردها الذاتية، فسكان الولايات المتحدة مثلا كانوا يمثلون نسبة ٥٪ من سكان العالم عام ١٩٨٤م، ولكنهم استهلكوا ربع إنتاج العالم من الطاقة في ذلك العام،(٢٠) والحديث هنا عن موارد الطاقة مجرد مثال لباقي الموارد الطبيعية الأخرى.

وإذا كان علماء الاقتصاد يدرسون مثل هذه المشكلات المتعلقة بالبيئة والموارد من زاويتهم الخاصة، وكذلك يفعل العلماء من التخصصات الأخرى ذات الصلة بها، فإن الأنثروبولوجيا توسع دائرة البحث، فتنظر إليها باعتبارها مظاهر ذات مضمون اقتصادي واجتماعي وإيديولوجي في آن واحد، وتبحث عن ارتباطها بأسلوب الحياة القائم في المجتمع الصناعي، والنسق القيمي الكامن وراء تصرفات أفراده، وأيضا تعقد المقارنات بين مواقف الإنسان في المجتمعات البسيطة، وفي المجتمعات المتقدمة صناعيا، تجاه البيئة والموارد الطبيعية وعمليات الإنتاج والاستهلاك. فتكشف، مثلا، عن أن الميل إلى زيادة الاستهلاك لا يعرفه سكان المجتمعات البسيطة، فهو إذا لا يمثل ميلا طبيعيا أو

(٢٠) Michael Freeman, *Atlas of the World Economy* (London: Routledge, 1991), p.62.

فطريا، بل إفرازا ثقافيا، للمجتمعات الصناعية. ويتطلب بالتالي حلولا ثقافية من داخل هذه المجتمعات ذاتها، بما يتوافق مع مصالحها المستقبلية، ومع مصالح الشعوب الأقل نموا والتي تسرع مواردها نحو النضوب لإشباع نهم المجتمعات الاستهلاكية ذات النفوذ العالمي.

وقد ظهر في العقود الأخيرة عدد من الدراسات الداعية إلى تصحيح العلاقة مع البيئة في العالم الغربي، والتي تحذر من العواقب الناجمة عن الخلل في هذه العلاقة، وتخطط لأسلوب آخر للحياة يرتكز على أسس جديدة، ومنها دراسة نشرتها مجلة *The Ecologist* باسم "مشروع من أجل البقاء،" وحددت هدفه بأنه محاولة لإرساء أسس مجتمع جديد يكون أكثر قدرة على الاستمرار والاستقرار، ويهيىء لأعضائه أكبر قدر ممكن من الشعور بالرضا والاكتفاء، وتتمثل الأسس التي يقوم عليها فيما يلي:

١ - أقل قدر ممكن من الصدام مع العمليات الإيكولوجية.

٢ - أكبر قدر ممكن من الحفاظ على الموارد والطاقة.

٣ - حجم سكاني تتوازن فيه نسبتا المواليد والوفيات.

٤ - نسق اجتماعي توفر فيه العناصر الثلاثة السابقة للفرد فرص الرضا بالحياة دون تضييق أو حرمان في إطار وحدات اجتماعية صغيرة.

وإلى جانب المناقشة التفصيلية بالمشروع للإجراءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المطلوبة، يهمنا هنا الإشارة إلى تلك العودة للمجتمعات الصغيرة محدودة النطاق والكثافة السكانية. فالمشروع يعتبرها الشكل الاجتماعي المناسب الذي يوفر لأعضائه فرص التعامل وجها لوجه، وإيقاظ الحوافز الذاتية، ويستشهد في ذلك بما تحفل به الكتابات الأنثروبولوجية عن المجتمعات "البدائية" الصغيرة.(٢١)

وتتفق مع هذا الاتجاه دراسة إليس بولدنج E. Boulding بعنوان "مستقبل التطور الاجتماعي في العالم المتقدم: كيف يستفيد العالم الأول من خبرات العالم

---

(٢١) The Editors of "The Ecologist," *A Blueprint for Survival* (Middlesex: Penguin Books, 1972), pp. 15-29.

الثالث؟ "[٢٢] والتي تتحدث فيها عن "الجماعات ذات الهوية الخاصة" الموجودة في أنحاء متفرقة من العالم وتعتبرها "بمثابة منبع ثري لخبرات الشعوب وحكمتها وللمهارات الفنية في حل المشكلات." ومن أمثلة هذه المهارات "معرفة كيفية استخدام الموارد والثروات المتاحة في البيئة، سواء كانت بيئة ريفية أم حضرية." [٢٣] وبعد أن تؤكد الباحثة حقيقة "فشل الدولة القومية الحديثة في الوفاء بحاجات سكانها" تتنبأ بأن "المستقبل السياسي المتوقع للقرن الحادي والعشرين قد يعتمد على نظام تجميعي جديد يختلف اختلافا كبيرا عن النظام السياسي الحالي للدولة القومية، نظام يسمح لهذه الجماعات ذات الهوية الخاصة بما تتميز به من رصيد كبير من الثقافة والمهارات والمعرفة بمساحة أكبر للإسهام في صياغة وتشكيل الدولة التي يشكلون جزءا منها." [٢٤]

٣ - مشكلات متصلة بظاهرة الفقر

زاد اهتمام الأنثروبولوجيا مع تحولها لدراسة المجتمعات الحضرية المعقدة بالمجتمعات الهامشية الفقيرة بصفة خاصة، وساعد على ذلك صلاحيتها لتطبيق الطريقة الأنثروبولوجية في دراسة المجتمعات ضيقة النطاق ذات الطبيعة المتجانسة والكثافة السكانية المحدودة. ومنذ أكثر من ثلاثين عاما صاغ الأنثروبولوجي أوسكار لويس O. Lewis اصطلاح "ثقافة الفقر،" الذي ساعد على توجيه الاهتمام إلى الجوانب غير الاقتصادية في ظاهرة الفقر في المجتمع الحديث. فسكان المناطق الفقيرة داخل المدن الكبيرة يستجيبون لظروفهم الاجتماعية والاقتصادية بالصياغة التدريجية لأسلوب معين في الحياة يجمع بين كونه رد فعل لوضعهم المتدني في سلم التدرج الاجتماعي، وبين كونه محاولة مستمرة للتكيف مع هذا الوضع. وعلى الرغم من أن أوسكار لويس يحدد عددا كبيرا من السمات المميزة لهذا الأسلوب بوجه عام، إلا أنه

---

(٢٢) أليس بولدنج، "مستقبل التطور الاجتماعي في العالم المتقدم: كيف يستفيد العالم الأول من العالم الثالث؟"، *المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية*، *القاهرة*، اليونيسكو (أغسطس ١٩٩٣م)، ص١٢.

(٢٣) بولدنج، "مستقبل،" ص٢٩.

(٢٤) بولدنج، "مستقبل،" ص٣٠.

حريص على القول بأنه "من الأهمية بمكان التمييز بين الصور المختلفة لثقافة الفقر بحسب السياق القومي الذي توجد فيه."[٢٥] ويتعلق بعض هذه السمات بنوعية العلاقة مع المجتمع الأكبر، مثل ضعف المشاركة في أنشطة الأحزاب والنقابات، أو التعامل مع المؤسسات المالية، أو الاستفادة من الخدمات التعليمية، وبعضها بالظروف المعيشية للمناطق الفقيرة والتنظيم الاجتماعي كالبطالة، وكثرة التنقل بين الأعمال المختلفة وضعف الدخول والمدخرات، ونقص التنظيم في المنطقة على مستوى أكبر من مستوى الأسرة، ويتعلق بعض السمات بوضع الأسرة، مثل زيادة المنازعات الزوجية، وحالات الانفصال، وافتقاد الخصوصية والميل إلى إعطاء دور محوري للمرأة في إدارة المنزل. كما تنعكس ثقافة الفقر أيضا علي السمات الشخصية لأفراد المناطق الفقيرة، كزيادة شعورهم بالهامشية والإحباط، والاتكالية، وضعف الوازع الذاتي، وعدم القدرة على التخطيط للمستقبل. ومن الدراسات العربية التي أخذت بهذا المفهوم عن أوسكار لويس دراسة محمد حسن غامري عن "ثقافة الفقر،"[٢٦] وقد أجريت بإحدى المناطق الهامشية الفقيرة بمدينة الإسكندرية. وأوضح فيها ميكانزمات التنشئة الاجتماعية التي تساعد على تكوين شخصية تتلاءم خصائصها مع طبيعة الحياة في مجتمع "الكرانتينة" الفقير، وبين كيفية انتقال هذه السمات الشخصية من جيل إلى آخر بصورة تدعم استمرار ثقافة الفقر في المنطقة. ولكن آراء أوسكار لويس تعرضت لحملة من النقد،[٢٧] على أساس أنه عالج ظاهرة الفقر من منظور ثقافي ضيق، فاهتم بالأنماط السلوكية والإيديولوجية المتصلة بها، وبكيفية تشربها من جانب الصغار خلال عملية التنشئة الاجتماعية، ثم انتقالها من جيل لآخر، ولم يهتم بالدرجة نفسها بربط الظاهرة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية القائمة في المجتمع الذي تشكل المنطقة الفقيرة جزءا

---

(٢٥) Oscar Lewis, *The Culture of Poverty*, quoted in G. Ginelch and W. Zenner, eds., *Urban Life* (New York: St. Martin's Press, 1980), p.270.

(٢٦) محمد حسن غامري، *ثقافة الفقر* (الإسكندرية: المركز العربي للنشر، ١٩٨٠م)، ص ص ٢٧٠-٢٩٧.

(٢٧) Eleanor Eames and Judith Goode, "Strategies for Coping with Inadequate Resources," in G. Ginelch and W. Zenner, pp.273-86.

منه، بالإضافة إلى أنه يستخدم مفهوم "الثقافة" كما لو كان أمرا محددا ومتفقا عليه، في حين أن هذا المفهوم كان وسيظل عرضة لاختلافات وجهات النظر حوله. وقد ظهر بالفعل نموذجان لهذا الاختلاف بعد دراسة أوسكار لويس، وهما النموذج المعرفي والنموذجي الإيكولوجي، فكل منهما يحدد معنى الثقافة بطريقة خاصة به. وعلي الرغم من أو أوسكار لويس عدّل بالفعل وجهة نظره الأولى، واعترف بأن العوامل الاجتماعية والخارجية أثقل وزنا في تأثيرها على المجتمعات السكانية الفقيرة من العوامل الداخلية،(٢٨) إلا أن اسمه سيظل مرتبطا بمجال مهم جذب اهتمام كثير من الباحثين الاجتماعيين، وهو ظاهرة الفقر في المجتمعات الحضرية بصفة خاصة.

وفي مقابل هذا المنظور الثقافي، درس عدد آخر من الأنثروبولوجيين الظاهرة نفسها من منظور بنائي، وانصب اهتمامهم في هذه الحالة على اكتشاف نوعين من العلاقات، أولهما ما يتصل بالمجتمع الهامشي ذاته كالاستراتيجيات التي يلجأ إليها سكانه لمواجهة ضغط الموارد القليلة المتاحة لهم ومحاولة تنميتها لمواصلة البقاء وتحقيق قدر من الحراك الاجتماعي، والآخر يتصل بكيفية التفاعل بين هذا المجتمع وبين المؤسسات الرسمية للمجتمع الكبير، وما يصدر عنها من سياسات اقتصادية واجتماعية تؤثر سلبا أو إيجابا على التوازن القائم في المجتمع الهامشي الفقير. وكمثال لهذا المنظور نذكر دراسة ليزا بيتاي(٢٩) عن أحد الأحياء الفقيرة في العاصمة كاراكاس بفنزويلا، والذي قدم سكانه من المناطق الزراعية للعمل بأجور منخفضة في المشروعات الجديدة بالمدن، فالباحثة تلقي الضوء علي الطابع الازدواجي للاقتصاد وتفرقته بين

---

(٢٨) Lewis, p.260.

يقول أوسكار لويس في التعبير عن هذا التحول: "إن السؤال الحاسم الذي نطرحه من وجهتي النظر العلمية والسياسية يتعلق بالوزن الذي ينبغي علينا إضفاؤه على العوامل الداخلية ذات القدرة على الاستمرار في ثقافة الفقر الفرعية بالمقارنة مع العوامل المجتمعية الخارجية، وبالنسبة لموقفي الخاص فإنني أرى أنه في المدى الطويل تصبح تلك العوامل المستمرة ذاتيا في وضع أدنى وأقل أهمية نسبيا إذا هي قورنت بالبناء الأساسي للمجتمع الأكبر."

(٢٩) Lisa Peattie, "The Structural Parameters of Emerging Life Styles in Venezuela," in E. Leacock, ed., *The Culture of Poverty: A Critique* (New York: Pergamon Press, 1989), pp.285-98.

مستويات مرتفعة من الأجور لسكان المدينة ذوي المهارات والكفاءات العالية، وبين مستويات منخفضة للعمال من المناطق الهامشية، رغم مشقة أعمالهم ورغم ارتفاع الدخل القومي، وذلك استمرارا للسياسات القديمة التي دأبت على إعطاء الفلاحين أدنى الأجور. وساعد هذا الازدواج على استمرار الأوضاع في المجتمع الهامشي على حالها، رغم أن السكان يبدون نفورهم من العودة للعمل الزراعي، ويأملون في العثور على فرص عمل أفضل تقربهم من أسلوب الحياة للطبقة الأعلى منهم، والتي يتشبهون بها في حدود إمكاناتهم المالية، كأن يستفيد أحدهم من العمل في المصنع ليكتسب خبرة في الأعمال الكهربائية، ثم يدير مشروعا خاصا به يوفر له دخلا ثابتا ومرتفعا نسبيا. وتوضح الباحثة كذلك أنماط العلاقات الاجتماعية داخل المنطقة الفقيرة، فتشير إلى دور النسق القرابي في دعم العلاقات بين الأفراد، وخاصة في الظروف الصعبة والطارئة، وإلى الأعمال التي تتجه إليها المرأة والدور المحوري لها في إدارة شؤون الأسرة. وبوجه عام يبدو الطابع البنائي واضحا في دراستها في قولها: "تنقسم العوامل التي تساعد على ظهور هذه الأساليب المختلفة للحياة وعلى استمرارها إلى داخلية مثل أنماط السلوك ومحاور الاهتمام والقيم وبناء الأسرة، وأخرى خارجية مثل أنماط التنمية الحضرية، والبناء السياسي، مع ملاحظة أن هذين النوعين من العوامل يتداخلان بطريقة معقدة.(٣٠)

ومن الدراسات التي أخذت بهذا المدخل البنائي دراسة عبدالله غانم عن مجتمع الحمالين في ميناء الإسكندرية،(٣١) فهي توضح الخصائص المميزة للنسق الاقتصادي لهذا المجتمع، والذي أوجد آليات للتعاون بين أعضائه، من شأنها إضعاف أشكال تعاملهم الاقتصادي مع أبناء المدينة ومؤسساتها المالية، وكذلك خصائص النسق القرابي التي أظهرت استمرار انتماء الحمالين للمناطق التي هاجروا منها، وميلهم للتجمع في منطقة العمل الجديدة في صورة قرى تقابل قراهم الأصلية وتسودها العلاقات القرابية. وبالنسبة للنسق السياسي والضبط الاجتماعي، توضح الدراسة العوامل التي أدت إلى

---

(٣٠) Peattie, p.296.

(٣١) عبدالله عبدالغني غانم، هجرة *الأيدي العاملة: دراسة البناء الاجتماعي لمجتمع الحمالين بميناء الإسكندرية* (الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٢م)، ص ص ٣٤٦-٤٠١.

تطور علاقات التحاشي والاجتناب بين الحمالين تجاه السلطة المحلية.

وسواء كان المنظور ثقافيا أو بنائيا، فإن السمة العامة في الدراسات الأنثروبولوجية عن ظاهرة الفقر تتمثل في حرصها على معالجتها ضمن إطار عام، لا تنعزل فيه المظاهر الاقتصادية للمشكلة عن باقي المظاهر الأخرى في المحيط السكاني الذي تجرى فيه دراسة الظاهرة. وإذا كان المنظور الثقافي يركز على الأنماط السلوكية والأنساق القيمية التي يتم تشربها لدى أعضاء المجتمعات الفقيرة وتغريبهم بالعزلة عن المجتمع الكبير، فإن المنظور البنائي يهتم في المقابل بموقفهم تجاه ما يعانونه من ضغوط، وهم يسعون إلى الانخراط في هذا المجتمع دون أن تتوافر لديهم الوسائل التي تساعد على ذلك. وهذا يعني أن المدخل الأول يجعل الفقراء مسؤولين إلى حد ما عن الوضع المتدني الذي يعانون منه، في حين يعبر المدخل الثاني عن محاولاتهم المستمرة من أجل تغيير هذا الوضع، ويعني كذلك أن مواجهة الفقر في الحالة الأولى لاتحدث إلا إذا تمت في صورة برامج اجتماعية موجهة تضعها الجهات المسؤولة عن التنمية المحلية، في حين تتطلب المواجهة في الحالة الثانية العمل على تعديل الظروف الاقتصادية التي يعني استمرارها استمرارا للمشكلة. وإذا كان المنظور الثقافي ساعد على دعم المبدأ القائل بضرورة التعرف على حياة الفقراء من الداخل عند التخطيط لأي مشروع إنمائي يجرى إعداده، فإن المنظور البنائي ساعد من ناحيته على دعم المبدأ القائل بأن الفقر لا يفسر الفقر، بما يعنى أن التفسير يكمن فيما وراءه من علاقات بالنظم والأنساق الاجتماعية والثقافية. وبالتالي تتطلب دراسة المناطق الفقيرة بصورها المختلفة، ليس فقط التعرف على سياقها أو بنائها الخاص، بل أيضا التعرف على نوع العلاقات التي تربط بين هذا السياق أو البناء وبين المجتمع الكبير.

وفي هذا الصدد يذكر تقرير البنك الدولي عن التنمية لعام ١٩٩٠م، والذي خصصه لمشكلة الفقر في العالم، "ينبغي ألا يكون لدى واضعي السياسة في العالم مهمة تعلو في الأولوية على مهمة الإقلال من الفقر العالمي، فهو لا يزال في العقد الأخير من القرن العشرين مشكلة لها أبعاد مذهلة." ومع كل البيانات الكمية التي يعرضها التقرير فيما يتصل بالاستراتيجيات المختلفة التي يمكن للحكومات في الدول النامية اتباعها في هذا المجال، إلا أنه يحرص على التأكيد على أنه "إذا أريد للحكومات أن تحد من الفقر، أو تحكم على سياساتها الاقتصادية، وكيف تؤثر في

الفقر، فهي تحتاج إلى معرفة الشيء الكثير عن الفقراء . . . فالسياسات التي تتوجه إلى الفقراء رأسا قل أن تنجح إلا إذا عرفت الحكومات من هم الفقراء وكيف يتجاوبون إزاء السياسات وإزاء بيئتهم. (٣٢) أليس هذا هو المجال الذي يمكن للأنثروبولوجيين من خلال منهجهم المتميز في البحث القيام بدور مهم فيه لمساعدة حكوماتهم على مواجهة هذه المشكلة تحقيقا لأحد أهداف "أنثروبولوجيا أبناء البلد الأصليين" كما أشرنا سابقا؟

٤ - مشكلات متصلة بالرؤية المستقبلية

نبعت الحاجة إلى علم يختص بالرؤية المستقبلية من عدة عوامل منها الشعور بأن المشكلات الحالية التي تعاني منها المجتمعات كانت النتيجة الطبيعية لسياسات أو قرارات خاطئة حدثت في الماضي، وكذلك الشعور بسرعة التغيرات الاجتماعية الراهنة نتيجة القفزات المتلاحقة في المجالات العلمية والتكنولوجية مما يقتضي استبصار المسارات التي يمكن أن تتجه إليها، وبلورة ما هو أكثر قبولا لأعضاء كل مجتمع. وكثيرا ما يلجأ الأفراد أو تلجأ الجماعات إلى أسلوب التخطيط لمواجهة مشكلات قادمة، ولكن الفارق بين هذا الأسلوب والرؤية المستقبلية هو أن الأول يرتبط بإيجاد حلول معينة لمشكلة محددة، في حين تتعامل الرؤية مع كيان مركب من الموضوعات والمشكلات، وتدرس تأثير الحلول التي تضعها لإحداها على التساند القائم بينها وبين العناصر المكونة لهذا الكيان، فهي إذا دراسة للديناميات الخاصة بهذه العناصر ضمن إطار تصوري معين، وليست مجرد محاولات ناجحة أو فاشلة لمواجهة مشكلات بعينها، ولم تكن الحاجة ماسة قبل الثورة الصناعية لمثل هذا العلم المستقبلي نظرا لارتباط الإنسان الزارع بالدورات الطبيعية للبيئة بحيث يصبح المطلوب منه تنظيم أنشطته بالتوافق معها، ولكن عندما تمكن من خلال تقدمه التكنولوجي من التأثير على هذه الدورات ذاتها بدأ يشعر بالحاجة إلى استبصار التغيرات التي

---

(٣٢) البنك الدولي للإنشاء والتعمير، تقرير عن التنمية ١٩٩٠ "الفقر" (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠م)، ص٤٤.

(٣٣) Alan Thomson, *Understanding Futurology* (London: David & Charles, 1979), pp.15-16.

ستواجهه، وما قد تحمله من فوائد أو أضرار،[٣٣] ويعمل في مجال الرؤية المستقبلية عدد كبير من العلماء ذوي التخصصات المختلفة، ولهذا تتباين المداخل التي يعالجون بها الموضوع الواحد أو الظاهرة الواحدة، فالاقتصاديون مثلا يركزون على الحسابات الكمية للمدخلات والمخرجات، وإحصاءات الدخل القومي والسكان والموارد وغيرها. والعلماء الطبيعيون يركزون بدورهم على حركة القوانين الدينامية التي تتحكم في وفرة أو نضوب العناصر الطبيعية، ويجرون التحليلات الكمية التي تلقي الضوء على وضعها في المستقبل ويربطون بينها وبين الحاجات البشرية المتزايدة. ولهذا فإن جهود العلماء الاجتماعيين تصبح مطلبا ملحا لأنها تركز على الأبعاد الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية التي تغيب عن التحليلات الإحصائية والفيزيقية الخالصة.

وفيما يتعلق بجهود الأنثروبولوجيا في هذا المجال نلاحظ النقاط التالية:

أولا: أوضحت الأنثروبولوجيا خطورة الثنائية القائمة بين المجتمعات الصناعية وغير الصناعية على عمليات الرؤية المستقبلية لهذه المجتمعات الأخيرة، وذلك من خلال ما يمكن اعتباره مدخلا ثقافيا لها، فقد ساعد الاعتقاد طويلا أن العالم الصناعي يمثل النموذج المستقبلي لأي مجتمع نام بين دول العالم الثالث، وساعد على تقويته الاستعانة بالخبراء الغربيين من جهة ووجود صفوة من أبناء هذه الدول ذات ثقافة غربية من جهة أخرى. وأصبحت عملية التحديث تختصر في صيغة مبسطة من الخطوات أو المراحل التي تحقق الانتقال من وضع بعيد عن هذا النموذج إلى وضع يكون أكثر اقترابا منه، ولكن تعرض هذا النموذج الغربي ذاته في العقود الأخيرة للأزمات المتلاحقة جعل الصورة تهتز وساعد على نشاط الدراسات التي تكشف عن مواطن الضعف في الأنساق الغربية القائمة، وتظهر أنها بدورها مقبلة على تغيرات مستقبلية خاصة بها. وتناولت الأنثروبولوجيا هذه الظاهرة من زاوية تختلف عن كثير من المعالجات الأخرى لها، وهي ضرورة انبثاق نماذج الرؤية المستقبلية للدول غير الصناعية من الواقع الثقافي لها، ومراعاة الخصائص الدقيقة والعميقة لهذا الواقع والتي يكون أبناء الثقافة ذاتها أقدر من غيرهم على التوصل إليها، ويصور الأنثروبولوجي ألفن توفلر هذا الموقف الناجم عن اهتزاز النموذج الغربي بقوله: "في مثل هذا الموقف لم تعد الثقافات غير الصناعية

مقتنعة برسم صورة مستقبلها باستخدام الصيغ المأخوذ بها في العالم الصناعي، وأصبحنا نحن الذين نشأنا في إطار هذا العالم لا نأخذ ديمومته كأمر مسلّم به، ولم يعد أمام الجانبين إلا أن يأملوا في ظهور صور أخرى بديلة وجديدة للمستقبل. (٣٤)

ثانيا: عالجت الأنثروبولوجيا أبعاد الأزمة الإيديولوجية التي تكمن وراء التحولات الجارية في العالم الغربي، فالدراسة الأنثروبولوجية لأية ثقافة لابد أن تشمل أنساقها المادية والاجتماعية والإيديولوجية باعتبارها جميعا متداخلة ويؤثر بعضها في البعض الآخر ويتأثر به. وقد أشار الأنثروبولوجي مارويامًا (٣٥) إلى أن أساليب التفكير والأنماط المعرفية الغربية تتعرض منذ فترة لإرهاصات تنبىء عن وجود تحولات قادمة، فالبنية التي تقوم عليها هذه الأساليب والأنماط ذات طابع غربي خالص أساسه المنطق الاستقرائي، وفكرة السببية ذات الاتجاه الواحد من المؤثر إلى المتأثر، والنموذج الهرمي للتنظيم الاجتماعي، ورؤية العالم البيئي والاجتماعي من خلال مفاهيم التنافس والغلبة، ومحورية الوسائل التكنولوجية، والاكتفاء بنوع واحد من التشرب الثقافي. ولكن هذه البنية التي طبعت الحياة الغربية لعدة قرون دخلت في تحديات ومواجهات مع أنماط وأساليب إيديولوجية أخرى منبثقة أحيانا من الفئات العرقية الأخرى، كالهنود الحمر أو الزنوج أو المهاجرين الصينيين واليابانيين، وأحيانا من الحركات الشبابية التي تستعير أفكارا من الثقافة الهندية زو غيرها وأنماطا للمعيشة لم تكن تعرفها الثقافات الغربية، وأحيانا من نشاط الحركات السياسية التي تؤكد مثلا الثنائية القائمة بين البيض والسود، وما ينجم عنها من عدم تجانس ثقافي، وحاجة إلى إحداث تغيير في الطابع الغربي للعملية الديموقراطية القائم على مفهوم الغلبة وإخضاع الأقلية لحكم الأغلبية. وهكذا وجدت الإيديولوجية الغربية نفسها في مواجهة عدد من المتناقضات القائمة في أساليب التفكير والنظر إلى عالم الأشياء والأشخاص، ومن أبرزها مفاهيم المنافسة في مقابل المشاركة، وإخضاع البيئة في مقابل التواؤم معها، والتفوق المادي في مقابل زيادة

(٣٤) Alvin Toffler, "Introduction," in M. Maryama and A. Harkins, eds., *Culture of the Future* (Paris: Mouton, 1978), pp.ix-xi.

(٣٥) Magorah Maruyama and Arthur Harkins, eds., *Culture of the Future* (Paris: Mouton, 1978), pp.35-61.

صقل العقل، والتركيبة الهرمية في مقابل تبادل المنفعة بين أطراف متكافئة، والتجانس في مقابل التعدد، والقيادة في مقابل التفاعل المتبادل. ويشير ماريوياما إلى أن كثيرا من الأمريكيين الذين كانوا يشعرون بالأمان النفسي النابع من اعتقادهم بأن أنماطهم الإيديولوجية تمثل الأنماط المثلى بدأوا يشعرون بأن الأرض تهتز من تحت أقدامهم، وكان رد فعلهم التلقائي تجاه التحديات الجديدة هو زيادة تمسكهم بالاتجاهات الفكرية المحافظة، والبحث عن كل ما يعززها. وحاول بعض المحللين لهذه الظاهرة إرجاعها إلى ما يحدث عادة من دورات متكررة بين الاتجاهات المحافظة والتحررية، ولكن الفارق هذه المرة يتمثل في أن تلك الدورات كانت تتم في إطار النسق المعرفي ذاته، في حين تمثل الظاهرة الحالية تحولا نحو أفق جديد لم تتضح معالمه المعرفية بعد.(٣٦)

ثالثا: أوضحت الأنثروبولوجيا أن الرؤية المستقبلية لا ينبغي أن تؤخذ بمعنى السعي نحو إيجاد علم يوفر أنساقا من المعلومات الجاهزة تتعلق بالمستقبل، وإنما أيضا بمعنيإأيجاد علم يساعد الأفراد على تنمية قدراتهم على التحول من القوالب المعرفية المعتادة المتشبعة بروح التمركز الثقافي، نحو نوع من الثقافة والمعرفة الرحبة القائمة على التفاعل والتبادل غير الهرمي بين سائر الثقافات، والذي تنقاد فيه التكنولوجيا للغايات الثقافية بما يساعد على تصحيح الوضع الحالي الذي أصبحت العربة فيه سابقة على حصانها.(٣٧) ويساعد على تحقيق هذا الهدف - أي تشجيع نمو العقلية الملائمة للتغيرات المستقبلية - عدة وسائل، منها التفاعل مع أنواع أخرى من الأساليب المعرفية كالمنطق غير الأرسطي، والثقافات التي لا تأخذ بمبدأ التركيب الهرمي بين الناس، والنظريات الجديدة عن النسبية والسببية، ومنها العمل على إضعاف روح التمركز الثقافي التي تغري باتخاذ مواقف هجومية تجاه الأساليب المعرفية المخالفة كآلية لتحقيق الاستقرار النفسي، ومنها أيضا تشجيع الأفراد على معاودة فحص النظريات والتعريفات والمفاهيم القائمة وعلى الاستفادة من قدرتهم على التخيل.

وتبدو الحاجة ماسة إلى تكوين مثل هذه العقلية عندما نلاحظ مثلا ما يسود عددا

(٣٦) Maruyama and Harkins, p.38.

(٣٧) Ibid., p.57.

من العلوم الاجتماعية والإنسانية من قوالب فكرية قائمة في أساسها على الأنماط الغربية، وحتى إذا جادل العلماء الغربيون بأنهم يتحرون الموضوعية عند دراستهم للظواهر الاجتماعية في مجتمعات غير غربية، فإن فكرتهم عن هذه الموضوعية هي ذاتها نابعة من تمركز ثقافي يغريهم بتسطيح الظواهر واختزالها إلى مجموعة من العناصر الكمية والعمليات الإحصائية التي يسهل عليهم التعامل معها علميا وتبادلها فيما بينهم، ولهذا ذهب بعضهم إلى حد القول إن العلماء الغربيين أقدر على تحقيق الموضوعية عند دراستهم للمجتمعات غير الغربية من أبنائها. ويرى الأنثروبولوجي مارويا ما أن المعطيات الإدراكية الذاتية التي يتوصل إليها ويشارك فيها أبناء المجتمع غير الغربي لاتقل قيمة كحقيقة واقعية عن تلك القياسات الكمية التي توصف بالموضوعية. ولاينبغي في هذا الصدد الخلط بين معنى الدقة العلمية ومعنى الصرامة أو الجمود لأن تاريخ العلم يحفل بكثير من الابتكارات التي اقتضت العدول عن بعض القوانين أو المسلمات العلمية أو على الأقل تعديلها.

رابعا: استفادت الأنثروبولوجيا من المنهج الكلي أو الشمولي الذي يعتمد عليه البحث الحقلي في صياغة رؤية مستقبلية تأخذ في اعتبارها الأوضاع القائمة في المجتمع الإنساني الراهن من جهة والتاريخ الطويل لنمو الحضارة البشرية من جهة أخرى، وعبرت عن هذه الرؤية الأنثروبولوجية مرجريت ميد[٣٨] التي ترى أن الإنجازات العلمية الحديثة في مجال الفضاء ساعدت على نظرتنا لكوكبنا الأرضي كعالم واحد يضم نوعا إنسانيا واحدا، وبالتالي على الشعور بأنه ليس من حق جماعة معينة من البشر تملك مصادر القوة والتحكم في جماعات أخرى محرومة منها، وخاصة أن الإنجازات في مجال الاتصال ساعدت لأول مرة في تاريخ الإنسان على شيوع الخبرة والتجارب الإنسانية مهما تباعدت المسافات، وهذا من شأنه بلورة أساليب جديدة في التفكير تعالج الثغرات الموجودة حاليا في أساليب نظرتنا إلى العالم من حولنا، ولكن هذا لن يتأتى إذا تواصلت حساباتنا الخاطئة، وإغفالنا لخبرات العالم من حولنا ولخبرات التاريخ الطويل

(٣٨) Margaret Mead, *World Enough* (Boston: Little-Brown, 1975), pp.210-15.

للإنسان على الأرض. ولكي نتمكن من محاولة تحقيق الرؤية المستقبلية لابد من الجمع بين جهود العلماء الذين يرون أن التكنولوجيا وحدها كفيلة بعلاج مشكلاتنا كافة، وبين جهود العلماء والمفكرين المعنيين بالأبعاد الإنسانية والمشكلات التي يعاني منها البشر حاليا.

والفرق واضح بين هذه الرؤية المستقبلية الشمولية لمرجريت ميد وبين رؤية أخرى مفعمة بالتمركز الثقافي يعبر عنها فرنسيس فوكوياما F. Fukuyama الذي يعتبر أننا نشهد الآن "ليس مجرد نهاية الحرب الباردة أو انتهاء صفحة فترة معينة من تاريخ ما بعد الحرب بل نهاية التاريخ ذاته، أي نقطة النهاية لتطور البشرية الإيديولوجي، وانتشار الديمقراطية الليبرالية الغربية في العالم كله باعتبارها الشكل النهائي للحكومة البشرية." (٣٩) وفوكوياما الياباني الأصل والأمريكي الجنسية منطقي مع نفسه، فالتاريخ الذي يستعرض أحداثه هو تاريخ الدول الغربية، ومعها الصين واليابان من آسيا، والذي ينتهي "بانتصار الغرب أي الفكرة الغربية." أما بقية "البشرية" التي يتحدث عنها فيما سبق فلا يذكرها إلا في عبارة متعجلة يقول فيها: "إن الجانب الأكبر من العالم الثالث مازال يتخبط في أوحال التاريخ." (٤٠) وهو أيضا منطقي مع نفسه عندما يتحكم في رؤيته المستقبلية المنظور الاقتصادي الضيق، فيذكر "أن نهاية التاريخ ستكون فترة حزينة للغاية، فالصراع من أجل التفوق والاستعداد للمخاطرة بالحياة من أجل أهداف مجردة، والصراع الإيديولوجي على النطاق العالمي الذي يتطلب الشجاعة والجسارة وسعة الأفق والمثالية سوف تتراجع لتحل محلها الحسابات الاقتصادية والحل الذي لا ينتهي للمشكلات التقنية، والمشاغل البيئية وتلبية مطالب المستهلكين المتزايدة، وفي عصر مابعد التاريخ لن يكون هناك فن ولا فلسفة، بل مجرد العناية المستمرة بمتحف التاريخ البشري." (٤١)

---

(٣٩) فرنسيس فوكاياما، *هل هي نهاية التاريخ؟*، ترجمة دار البيادر (القاهرة: دار البيادر، ١٩٩٠م)، ص٦.

(٤٠) فوكاياما، *هل هي نهاية التاريخ؟*، ص٣٣.

(٤١) فوكاياما، *هل هي نهاية التاريخ؟*، ص٤٠.

الخلاصـــة

كشفت الأزمات والمشكلات المتلاحقة في عالمنا المعاصر عن ضرورة التضافر بين جهود العلماء المتخصصين في العلوم الطبيعية والتكنولوجية وبين جهود المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية. وتتميز مشاركة الأنثروبولوجيا في هذا المجال بالرؤية الشمولية التي لا تفصل بين محاولات الإنسان في المجتمعات المعقدة لإيجاد حلول لمشكلاته، وبين خبرات الإنسان في المجتمعات البسيطة التي ساعدت على استمرارها عبر آلاف السنين، كما تتميز بالقدرة على فهم الأبعاد الإنسانية للمشكلات والتي قد لاتصل إليها التحليلات الكمية، ففي مواجهة مشكلات التنمية أكد الباحث الأنثروبولوجي نجاح دوره كوسيط اجتماعي بين القائمين على تخطيط المشروعات الإنمائية وتنفيذها وبين الأهالي المستفيدين منها، إلى الحد الذي دفع البنك الدولي إلى الاعتراف بأهمية هذا الدور في إنجاح المشروعات التي يشرف عليها. وفيما يتصل بمشكلات البيئة والمحافظة على الموارد الطبيعية، أبرزت الأنثروبولوجيا الفروق الواضحة بين استراتيجيات المجتمعات المعقدة في التعامل مع البيئة وبين تلك الخاصة بالمجتمعات البسيطة، والتي يتم فيها استغلال المحيط البيئي دون تدمير للدورة الطبيعية لمكوناته.

وعرضت الدراسة – فيما يتصل بمناقشة مشكلة الفقر – المقابلة التي ظهرت في الأنثروبولوجيا بين المدخل الثقافي وبين المدخل البنائي، وكيف توصل المدخل الأول إلى ما أسماه "ثقافة الفقر" وحدد لها سماتها المميزة، ولكنه قوبل بنقد شديد من جانب أنصار المدخل البنائي الذي يربط بين الضغوط الواقعة على المجتمعات المحلية الفقيرة وبين طبيعة العلاقات القائمة بينها وبين المجتمعات الكبيرة التي توجد في إطارها. وفيما يتصل بالرؤية المستقبلية، أظهرت التحليلات الأنثروبولوجية الحاجة إلى أن تنبع هذه الرؤية في دول العالم الثالث من واقع ثقافاتها وعلى أيدي أبنائها بدلا من أن تتخذ من النموذج الغربي مثالا لها، وخاصة بعد أن تعرض هذا النموذج ذاته لهزات عديدة توحي بأنه يتجه بدوره نحو التغير.

A Discussion of Some Contemporary Problems from an Anthropological Perspective

Fathia Mohamed Ahmed Ibrahim
Assistant Professor, Department of Social Studies, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Numerous problems in the contemporary world revealed the need for cooperation between scientists working in the field of physical sciences and technology, and those working in the field of social sciences and humanities. Anthropology, as a social science, has its distinct holistic view that does not separate between man's trials in complex societies to solve problems, and experiences obtained by man in simple societies that enabled these societies to survive for thousands of years. Anthropology moreover has the ability of understanding humanistic dimensions of problems that cannot be reached by quantitative analysis.

Anthropologists working in the field of development confirmed their roles as social mediators between planners of developmental projects and people profiting by it. The International Bank acknowledged their success in this field. As for problems concerning environment and natural resources, anthropology clarified differences between the strategies of complex societies towards the environment and those used in simple societies. The latter are distinguished by their use of natural surroundings without destroying them..